عيد الميلاد

تأليف : أنتوني تشيكوف

ترجمة : حليم الاسيوطي

انتوني تشيكوف قصاص روسي من الطراز الاول ، أبدع في تصوير شخوصه والحياة الانسانية تصويراً بلغ حد الكمال ، فهو يبعث فيهم وفيها الحياة فاضرة دينة فتراهم يتحركون ، والنشاط والحياة تملؤهم . وفي هذه القصة القصيرة يرسم لنا الكاتب العظيم صورة لكهل وزوجه العجوز يذهبان الى جندي متقاعد احترف تسطير الرسائل يستكتبانه رسالة الى صهرهما في بطرسبرج . وفي الحديث الذي يدور بينهما وبينه تبدو عناية هذا الصنف من الناس وغيرهم ممن عاشوا في هذه القصة القصيرة حد الترجم .

ماذا أكتب ؟ هكذا تساءل يوجر وغمس في المحبرة قلمه . منذ أربعة أعوام لم تر فاسيليزيا يفيا ابنتها التي ذهبت الى بطرسبرج عقب زفافها ، ثم أرسلت الى أمها خطابين ومنذ ذلك الحين ، انقطعت أخبارها ، كمن فوق الدنيا فلم يعد يسمعها صوت ، ولا يدح لها خيال. وكانت المرأة العجوز دائمة التفكير في شيء واحد ، سواء أكانت تحلب البقرة في فجر الصباح أم توقد النار في المساء أم تغفو في الليل — ماذا حدث ليفيا ؟ أهي حية ترزق وقد أضحى التباعد من التداني بديلاً . وكان فرضاً عليها أن ترسل خطاباً ، فالوالد مسن ، وهن عظمه واشتعل منه الرأس شيباً ، لا يستطيع الكتابة ، وليس في الكورة من يكتب ، وقد أقبل عيد الميلاد ، وفاسيليزيا لا تطيق صبراً أكثر مما احتملت ، فذهبت الى الخان حيث يجلس يوجر أخو زوج صاحبه ، وهو متعطل منذ عودته من الجندية ويزعم الناس انه ذو مقدرة فائقة على تحرير الكتب إذا أحول له العطاء ، فباغتت فاسيليزيا طاهي الخانة ثم ربة الدار ، ثم يوجر ، وتم الاتفاق على خمسة عشر (كوبك) . وكان ذلك في اليوم الثاني من عطلة العيد. وفي مطبخ الخان حيث جلس يوجر الى المنضدة ممسكاً بقلمه في يده ، ووقفت فاسيليزيا أمامه وقد ارتسمت على وجهها دلائل القلق ، وبدت على أساريرها علامات الألم ، وكان يرافقهما

زوجها بوتر، وهو شيخ نحيل توصلت رأسه بقمة صلع خضراء، سار مرسلاً نظراته في شعاع مستقيم كأعمى، وكانت شريحة من لحم الخنزير تقلى على الموقد في طاجن مع قليل من عصير الطماطم، تئز بأصوات وقعها في الأذن مثل كلمات فلو فلو فلو ترسلها وهي تقرب من النضج.

***

عاد بوجر يكرر سؤاله: ماذا أكتب؟ ماذا تسائلت فاسيليزيا ناظرة اليه في غضب وقلق. لا تثقل علي فإنك لن تكتب لي بدون أجر. لا تخش شيئاً فأنا أنقدك أجراً عن عملك هيا اكتب: الى صهرنا العزيز أندري مريسانفتش، وابنتنا العزيزة الوحيدة يفيما بتروفانا في شوق لاهج نبعث بتحياتنا في حب واعزاز، داعين لكما بالبركات تغمركما أبد الحياة. تتمنى لكما عيداً سعيداً نحن ننعم بعيش خافض وحياة رغدة نرجو لكما أطيب منها، .... استجب يا الهي دعواتنا .... يا سيد السموات والأرض».

غرقت فاسيليزيا في تأمل عميق، ثم أطلقت تنهدات النظرات مع رجلها المسن.

«..... ونرجو لكما أطيب منها، تقبل دعائي يا خالق السموات والأرض». رددت فاسيليزيا الدعاء وبدأت تنتحب حتى عجزت عن أن تقوه بأكثر مما قالت، وكانت تخال في ليلتها الماضية وهي مستلقية على فراشها، مستغرقة في هواجسها وأحلامها إنها لن تكفيها عشر صفحات لتودعها ما في رأسها من أفكار. إذ منذ رحلت الابنة صحبة زوجها فاض ماء البحر غزيراً جارفاً، وحرم مسنو الأسرة الخير والماء وطفحوا في ماجة وعوز، ضائقة صدورهم بالتنهدات والأنين ليلاً والشكوى يرددونها نهاراً، وضجوا كمن واروا ابنتهم الثرى وفقدوها الى الأبد. لقد وقعت أحداث كثيرة في القرية منذ غادرتها يفيما فكم من زفاف وكم من وفاة، ما أطول فصول الشتاء وما أمر لياليه.

«الجو حار» قال بوجر وهو يفك أزرار سترته، وأردف لا بد ان درجة الحرارة قد بلغت السبعين، ثم سأل هل من مزيد؟

صمت الرجل المسن، وسكتت زوجه العجوز ... ثم أردف لقد كان جندياً، يا صديقي الطبب، فاه الرجل في صوت خفيض، وترك الجندية في الوقت الذي عدت فيه. كان جندياً

وثق مما أقول ، ولكنه يقيم الآن في بطرسبرج بواباً لمؤسسة العلاج المائي حيث يعالج الطبيب مرضاه بالماء دون غيره من العقاقير أو الأصلحة .

ثم قالت المرأة العجوز وهي تخرج سطاراً من جيبها نعم ان ما سمعت ولوحت بالسطار في يدها مكتوب هنا ، ولقد جاء من بترسبرج ولكن متى كان ذلك فعلمه عند ربي . أليس من المحتمل أنهما صارا في عداد الأموات . فكر يوجر قليلاً ، ثم عاود الكتابة على عجل من أملاء العجوز .

ثم استأنف الرجل العجوز إملاءه من جديد يقول « وفي الوقت الحاضر » اكتب يا يوجر ... « ومن يوم كتب عليك الانخراط في سلك الجندية ونحن ننصح لك أن تقرأ مجموعة الجنح التأديبية والقوانين الأساسية للادارة الحربية ، وسيبين لك من قراءتها ما يتظلم به رجال الحرب » .

سطر يوجر ما سمعه ، ثم قرأ عليهما ما سطر في صوت مرتفع بينما كانت فاسيليزا تتدبر ما يجب اضافته الى خطابها ... كيف كانت حالهم في العام المدبر ، ولم تكف الخلة حاجتهم حتى عيد الميلاد فاضطروا الى بيع البقرة فيجب والحال هذه طلب نقود وتصوير ما غدا فيه الرجل الشيخ من هلكات متواصلة دائبة وربما فارق الحياة وشيكاً .... ولكن أنى للمرأة العجوز الافصاح عن دخيلة نفسها ومكنون قلبها والألفاظ لا تطاوعها ؟ ولا تدري كيف تبدأ ولا متى تنتهي . فصمتت وعاود زوجها الاملاء قائلاً « أكتب ملحوظة » ، فاستأنف يوجر الكتابة « في المجلد الخامس من أنظمة الجيش كلمة جندي اسم يكون تارة عاماً وأخرى علماً ، والجندي في المرتبة الأولى هو القائد ، وفي المرتبة الدنيا ... ثم قطع الحديث وحرك الرجل الهرم شفتيه بعد برهة ، وقال في رقة وهدوء « انه لمن الواجب وعن الصواب أن يعني الآباء بالاحفاد فسألت المرأة ، وقد استشاطت غضباً : أي أحفاد تعني ؟ فأجاب الشيخ ، أليس من الجائز أن يكون هناك أحفاد ؟ ربما كان هناك بعض الحفدة فمن يدري ؟ فقاطعته قائلة :

أهكذا يكون تصورك للأشياء ؟ وأسرع يوجر في عمله ، وأسرع الشيخ في الاملاء ... ان ألد أعدائنا في الداخل وفي الخارج هو بلخوس اله الخمر .

صرّ القلم بين أصابع يوجر ولمع كشعر صياد عند ما أجراه على القرطاس ، وأسرع فتلا كل ما صطر .

وكان يوجر يجلس على مقعد يحرك قدميه العريضتين تحت نضد أمامه ، تنطق بالمتانة والشباب ، ويترقرق ماء العافية في وجنتيه ، وجهه كالح كوجه حيوان كاسر ، ورقبته كرقبة ثور ، فهو الفظاظة مجسمة . تخور بطولته وصوته التي أفلتها صحاء الحان حيث درج منذ الصغر .

وكانت فاسيليزيا تمي صفات يوجر ، ولكن تنقصها قوة التعبير ، فنظرت اليه وهي تميز من الخيط ، وأتابعها الدوار واستعصى عليها التعبير ، وصبب لها صوته الأجش وهمهمته الخشنة الصداع ، وبدا عليها القول ، وزاد الحال سوء حرارة المكان ، وهواؤه الفاسد ، فأمسكت عن التفكير وتمهلت ريثما يفرغ يوجر من كتابته ، بينما نظر الرجل الكهل في ثقة واطمئنان ، ثقة بزوجه ، واطمئنان اليها ، وقد جاءت به الى ذلك المكان كما كان يرتاح الى يوجر فلما ذكرت كلة دار العلاج المائي لمعت أسارير وجهه بإعانه بها ، وقوة عقيدته في الماء على الشفاء .

* * *

وحين فرغ يوجر من تسطير الكتاب وقف يعيد تلاوته ، والشيخ يهزّ رأسه مظهراً راحته الى ما يسمع دون أن يفهم له معنى .

قال الشيخ : « تجري الأمور على ما ينبغي ، فالخطاب رقيق حافل جزاك الله طيب الصحة يا بنيّ . . . . الحال مرضية راضية .

ألقت المرأة والشيخ بتنحنحة تنفرد من ذات الحنجرة (كوبك) على النضد ، وغادرا الحان والرجل ثابت البصر ، لا يطرف كأنه أعمى ارتسمت دلائل المعرفة والحكمة كاملتين على وجهه ، أما فاسيليزيا فما وضعت قدمها خارج عتبة المنزل حتى لوّحت بيديها عائقة صديقاً وهي تقول « فليأخذك الوباء » .

قضت المرأة العجوز الليل بطوله ساهرة مسهدة ، ما اكتحلت عيناها بنوم ، ولا أخذتها

سنة ، تقض البلابل وتطوم بمضجعها . فما لاح الفجر حتى هبت من رقادها ، وقد صلوا ، ثم خرجت تقصد مكتب البريد سعياً على الأقدام لتأتي بالخطابات وهو يبعد مسافة نصف أميال

* * *

— ٢ —

بدأت عيادة الطبيب ب . و . فوريلوز في صبيحة السام الجديد تستقبل نشاطها ، وتستكمل جميع مظاهرها السالفة إلا شيئاً واحداً فإن الملازم اندري هارفيس ارتضى حلة رسمية ذات جدائل وأولى حذاءه لمعانة فائقة ، ويحيي الزائرين قائلاً : عام سعيد .

وقف بالباب يقرأ صحيفة بيده ، وفي الساعة العاشرة وفد الى الدار ضابط عظيم ، تعوّد الاختلاف اليها ، وقدم في أثره ساعي البريد فتلقف أندري معطف الزائر وحياه بالعيد قائلاً : عام سعيد يا سيدي ، فأجاب الضابط : أفكر لك تمنياتك أيها الفتى الطيب ، ولك مثل ما ترجو ، ولما بلغ أعلا درجات السلم أومأ برأسه تجاه الباب وألقى سؤاله اعتاد أن يلقيه كل يوم وينسى الاجابة عليه : ما الذي بهذه الحجرة ؟ انها غرفة التدليك يا سيدي .

هدأت خطوات الضابط وخفت وقعها ونظر اندري الى الرسائل التي وصلت موجهة بينها رسالة باسمه ، فنضّ غلافها وقرأ بضعة سطور منها ، ثم مضى وئيد الخطى ، وهو ينظر في الصحيفة ، نحو حجرة في الطابق السفلي في الجهة المقابلة للمهو .

كانت فيها زوج أندري في فراشها ترضع طفلها وبجوارها وقد أكبر الأطفال سناً ، واصغى الثالث مسنداً رأسه بشعرها المتموّج على نهد أمه .

دفع اندري الخطاب الى زوجه وهو يطأ أرض الحجرة وقال . خطاب أخته من القرية .

وغادر الحجرة ولا زال بصره طالعاً بالصحيفة ، واستطاع أن يسمع فيها وهي تقرأ السطور الأولى من الخطاب في صوت متهدج باكٍ ، قرأت السطور الأولى ولم تستطع الاستمرار ، ففي ما قرأت الكفاية ، ثم انخرطت في البكاء واحتضنت طفلها الأكبر ، وطبعت على وجهه قبلاتها ، وفي صوتها حشرجة ليست بنهيج البكاء ولا بقرقعة الضحك وقالت بلسان حال رضيعها :

خطاب من جدتي، نعم خطاب من جدتي ، من القرية يا للسماوات ، ويا للقديسين والشهداء، ان الجليد الآن يغمركم أكراماً تحت سقوف المنازل ... والأشجار تكسو رؤوسها تيجان ناصعة البياض من الثلج ، والعصبة تنزلق في مركباتها الصغيرة ، وجدي العزيز الأصلع يجلس بجوار المدفأة . وكذا كلبنا الصغير ... اني أعرف أحبائي . » طرقت تلك الكلمات سمع اندري فذكر خطابات زوجه التي أعطتها له رجاء أن يبعث بها الى القرية ولكن في كل مرة كان يحول دون ذلك عارض يمنعه ، فتقدمت جميعها الأبد .

« الأرانب البرية تسرح حوالي الحقل » غنت يفيا وغمرت طفلها بالقبلات وغاصت عيناها بدمع هتون وأردفت « ان جدي عطوف رقيق .... وجدتي رحيمة حسنة الطوية وأهل الريف ذوو شعور قوي دافق ، وعاطفة مخبوءة جياشة ، يخشون الله ، ويعيشون في عفافه ، والقرويون يرتلون الترانيم في الكنيسة الصغيرة . ابتعدي بنا عن هذا المكان البغيض أيتها السماء ، أيتها الأم المباركة المقدسة »

* * *

عاد اندري الى الغرفة ليدخن لفافة تبغ في انتظار دقات طارق جديد فأمسكت يفيا عن الكلام واعتصمت بالصبر ، وجففت الدموع في مآقيها وما زالت شفتاها ترتعشان ، فقد كانت ترهب زوجها وتخشى بطشه وصولته .

ارتعدت فرائصها ، وملأها الذعر عند سماعها وقع أقدامه ، وتبينت في عينيه ما أخرسها عن التفوه بكلمة في محضره .

لم يكد أندري يضع لفافته حتى دق الجرس فأطفأها ، واصطنع الرزانة وأوصد الباب نحو الباب الأمامي . كان الضابط يهبط الدرج منتعشاً متورد الوجنات بعد حمامه .

سأله ، كما سأل من قبل مرات ، وعيناه تشيران الى الباب : « وماذا عساه يكون في تلك الحجرة ؟ »

وضع اندري يديه في سرعة وخفة بجانبه كعادة الجند وأجاب في صوت مرتفع ، متمن الماء الساخن يا سيدي .

تمت